الموسيقى الشرقية: تطهير الروح

الدكتور علي شرمان

الموسيقى في بعض معانيها اعتبرت الركيزة والعنصر المهم في جميع مجالات الثقافة الفنية لدول الشرق القديم، فالموسيقى الشرقية دور العاكس لحياة الإنسان الشرقي يتلمس العالم المحيط من خلالها رابطًا عن طريقها حاضره بماضيه، حيث تشير الدراسات التاريخية البشرية ان كثيرًا من الإنجازات الحقيقية في مجال الثقافات المادية والروحية أخذت بداياتها من حضارات الشرق مثل حضارات مصر، بلاد سومر، البابليون، الآشوريون، الأنباط، العمونيون، الفينيقيون، الهند والصين. وفي هذه البلدان على شكل الخصوص وجدت مختلف أنواع العلوم والآداب بداياتها بما في ذلك الموسيقى. حيث أخذت بداياتها في تلك العصور اتجاهًا طبقيًا فللنخبة موسيقى خاصة بها ولعامة الناس نوع آخر، أما في مراحلها التالية أخذت الموسيقى تتشكل وتتطور لتظهر موسيقى المحترفين، ويظهر العازفون المحترفون، والمطربون أيضًا، كما ظهرت، في أوائل دول الشرق القديم، المدارس الموسيقية ومدارس الرقص التي لا تنفصل بمهمتها وارتباطها عن المدارس الموسيقية، ويظهر دور الموسيقى في الحياة والمجتمع وتولد ما نسميه حاليًا الثقافة الموسيقية المتطورة في شقيها النظري والتطبيقي.

النقد الجمالي، وبنظرة تحليلية للآراء والأفكار الجمالية لدى شعوب الشرق القديم، نرى اعتبار أوروبا هي المركز في مجال البحث في الثقافة الموسيقية والجمال الموسيقي بشكل خاص، أدى الى تدني مستوى البحث في علم الجمال الشرقي والأدب الجمالي في العصر الحديث، ولكن ليس لحد يمنع من ريادة تلك الآراء والنظريات، ففي تقاليد الثقافة الغربية الكلمة هي الإضافة الحقيقية للخلود والبقاء في تلك الثقافة، بينما في الثقافة الشرقية الشيء الخالد بجانب الكلمة هي الموسيقى.

من هنا نرى أن من الأهمية بمكان احتساب النظريات والآراء التي سادت في الشرق القديم في مجالات العلوم والتي كانت الموسيقى تنتمي إليها وتلك التي خدمت المجتمع والجمال

الموسيقي. فقد ساد إحساس جمالي عال المستوى لدى شعوب الشرق وذلك حسب ما ذكر ذلك في كثير من الإسنادات الخطية وبدلالة التماثيل الفنية التي انتشرت وأخذت دورًا مهما ومحسوب القيمة في حقل الفنون الجمالية للشرق القديم. وعند إظهار وتوضيح الخريطة التكاملية للعروض الجمالية لهذه الشعوب نرى من الضرورة دراسة هذه التماثيل الفنية، ودراسة جميع إسناداتهم ومصادرهم الخطية من وجهة نظر تاريخية جمالية.

"التقليدية" كانت الصفة المميزة لتطور ثقافات الشرق القديم فاعتمدت في تطورها على التقليد. كما تطور الفن معتمدا الموروث فيه على الإرث. فادركت هذه الثقافات جميع حقول الحياة الاجتماعية وبفضل هذا العنصر المميز تطورت واستمرت كثير من النظريات والآراء وبقيت في ديمومة بدون تأثير وعلى مدى قرون، الشيء الذي بسط المهام أمام مزيج الحضارات الروحية الدينية بما في ذلك موروث الجمال الموسيقي، فكانت التقليدية من أسباب النجاح واستمراريتة، فأصبحت فنون الشرق القديم، والفنون الموسيقية خاصة، خالدة ماثلة ومتوارثة في وجدان الإنسان الشرقي وفي إبداعاته الظاهرة وبطانة لروحه التي ما لبثت أن تظهر في طقوس أفراحه وأحزانه بشكل صادق.

"التركيبية" هي الصفة الخصوصية للثقافة الروحية في الشرق القديم حيث الخلطة التوليفية غير مجزأة، مزج موحد بين الإحساس والمعقول، بين العاطفي الانفعالي والذهني العقلي، بين الرمزي والتفهيمي، وبين النظري والتطبيقي، وبالذات التركيبية هي المتواجدة في أساس الموسيقى التقليدية، الموسيقى الشرقية عمومًا والسبب في ذلك يرجع إلى ثبات ورصانة عادات وتقاليد الثقافة الشرقية وديمومتها. فمن الشواهد على التركيبية في الثقافة الشرقية هو تمجيد بعض الفلاسفة كما الشعراء والموسيقيين، حيث تشترك هذه الإبداعات في صياغة فنية واحدة، فالموسيقى بالنسبة لهم كانت ليست بهذا القدر الواسع على ما هي عليه من مفهوم واضح، بقدر ما كانت روحية معرفية ومادة شافية. كما أن التركيبية أساس عميق في بناء الموروث الموسيقي، ومن السمات الأساسية للموروث الجمالي في الثقافة الشرقية حين تجتمع أشكال فنية عديدة في تركيبية متنوعة ومنسجمة، مؤثرة في بعضها البعض، لتكون في مجملها شكلًا فنيًا

ومسمى واحدًا. واستمرت هذه السمة، فيما بعد، حيث توارثتها الثقافات الفنية الشرقية المتعاقبة، وما زال وجودها صفة دائمة ومشوقة في موسيقانا التقليدية وعفوية بارزة ومميزة في أدائها.

أما مفكرو الشرق، فقد ثمنوا الجانب الأدبي والأخلاقي والصفة المعنوية والمطهرة للموسيقى، ودائمًا كانت الإمكانيات التربوية والمعرفية للموسيقى مربط نقاشاتهم وسجالهم محاولين التعمق في حقيقتها وجوهرها. فأخذت أول الآراء الموسيقية الجمالية عند الشرقيين تصوراتها من علم الخرافات والأساطير «ميثولوجيا»، وهذا العلم الذي يكون من نفسه خليطًا من كل فلسفة، دينية، أخلاقية، معنوية، فنية وعلمية، وهو أساس الفن القديم. فنسجت حول الموسيقى الكثير من الأساطير والتي أصبح من المستحيل الفصل بين ما هو خيالي أو ما يقرب من الحقيقة، أما الحقيقة فلم تكتشف بعد!.